لبنان: علاقـــة الحـــزب الشـــيوعي بحـــزب الله

سعد الله مزرعاني*

تحرك الوضع اللبناني في السنوات الأخيرة على إيقاع المشروع الأميركي الذي كانت محطته الأساسية غزو العراق وإحتلاله في نيسان من عام 2003.
معارضة القيادة السورية للغزو، ومن ثم رفضها التكيف مع مقتضيات ترسيخ أقدامه هناك، دفعت واشنطن الى ممارسة سلسلة ضغوط على السلطة السورية كان أبرزها في لبنان. معروف أن سوريا كانت تتمتع بنفوذ كبير في لبنان، وكانت تستخدم هذا النفوذ كعنصر رئيسي (أو حتى رئيسي) في تأمين حضورها في معادلة الصراع مع إسرائيل التي تحتل أرضها، وفي المعادلة الاقليمية بما يؤمن لسوريا موقعاً يتخطى حدودها ويمكنها من أن تكون أحد المؤثرين في تقرير قضايا المنطقة وتوازنات صراعاتها.
وكان إضعاف سوريا في لبنان هدفاً يصيب وفق المدى الذي يمكن أن يصل اليه التوتر الأميركي – السوري، عدة أهداف: إفقاد سوريا موقعاً مهماً للفعل وللتأثير، كشف "حزب الله" وحرمانه من مصدر قوة ودعم وعمق، لا يعوّض، إفقاد إيران حليفاً عربياً ثابتاً وفعالاً، تهديد النظام السوري نفسه.

كانت الاستحقاقات الانتخابية الرئيسية في لبنان تقترب، وكانت تتصاعد معها حدة الصراع. المحطة الأولى كانت إنتخابات رئاسة الجمهورية. تمحور النزاع على إبقاء أو إستبدال الرئيس إميل لحود في موقع الرئاسة الأولى. حشدت القيادة السورية كل عناصر الضغط المتوفرة لديها من أجل تمديد ولاية لحود. ومارس الأميركيون ضغوطاً مقابلة. جرى التمديد للرئيس لحود في خضم معركة استصدر الاميركيون في مجراها، عن مجلس الأمن، القرار الشهير الذي حمل الرقم 1559. سحب هذا القرار الشرعية العربية والدولية عن الوجود العسكري والأمني والسياسي في لبنان، الذي كان قد تكرس بموجب "اتفاق الطائف" لعام 1989. بموجب هذين الاجراءين (التمديد للحود والقرار 1559)، بات الوضع اللبناني مهيئاً لكل أشكال التصعيد. هذا ما حصل بالفعل ابتداءً من تشرين عام 2004. فقد شهد لبنان سلسلة اغتيالات كان أبرزها اغتيال رفيق الحريري رئيس الوزراء السابق في 14 شباط فبراير عام 2005. واستمر التصعيد السياسي والأمني في لبنان ، ليصل الى ذروته في تموز من عام 2006. إذاك غزت القوات الإسرائيلية لبنان في محاولة لتحقيق الأهداف الكبيرة المذكورة اعلاه.

ركز الأميركيون على لبنان وأقاموا تنسيقاً مع الفرنسيين تجاوز كل خلافاتهما السابقة حول غزو العراق ونتائجه. هذا الواقع هو الذي شكل الحياة السياسية اللبنانية طيلة الفترة الممتدة منذ غزو العراق الى "إتفاق الدوحة" الذي وُقع في العاصمة القطرية في أواسط أيار/مايو من العام 2008. سبقت ذلك أحداث دامية وقعت في السابع من شهر أيار المذكور. كانت قوى الأكثرية البرلمانية الحليفة لواشنطن وعرب "الاعتدال" هم من بادر بالتصعيد، فردت المعارضة بما كشف اختلال ميزان القوى لغير مصلحة الفريق المتحالف مع واشنطن، كما كشف عجز واشنطن أيضاً عن توفير الدعم والحماية لحلفائها (كما كشف أيضاً عجز مصر والسعودية عن الشيء نفسه). شكل "إتفاق الدوحة" المذكور نهاية مرحلة التفرد الأميركي في التأثير على القرار الرسمي اللبناني. تمّ إنتخاب رئيس توافقي للجمهورية. تشكلت حكومة حصلت فيها المعارضة على ما سمي بالثلث "الضامن"، أي بما يمكنها من ممارسة حق النقض على القرارات المتخذة بشأن عدد من المسائل الرئيسية في السياسات الخارجية والداخلية اللبنانية. في هذا

الاتفاق أيضاً بند تناول مشروع قانون الانتخاب الذي جرت على أساسه الانتخابات التشريعية في 7 حزيران 2009.

في مجرى هذا الصراع إنقسم لبنان، سياسياً وشعبياً، الى درجة غير مسبوقة. الاستقطاب الخارجي أيضاً لجبهتي الصراع الاساسيتين المعروفتين بـ تحالفي 8 و14 آذار (لعام 2005)، بلغ، هو الآخر، الذروة. كان ثمة أيضاً أطراف أقل قوة وتأثيراً، حاضرة في ساحة الصراع. أحد هذه الأطراف الحزب الشيوعي اللبناني. توطدت علاقة الحزب مع "حزب الله" خصوصاً، في مواجهة المشروع الأميركي (وحلفائه في لبنان) بشكل عام، وفي مواجهة العدوان الاسرائيلي عام 2006، بشكل خاص، إذ شكل الدور المقاوم لـ"حزب الله" مهمة، رغم التباين في أمور وعناوين أخرى من بينها الموقف من النظام الطائفي في لبنان، وهو نظام بات عاجزاً عن توفير مقومات الوحدة والسيادة والاستقرار لشعبنا. كذلكن فالحزب الشيوعي ينظر باهتمام كبير الى الوضع الاقتصادي في لبنان الذي يعاني من واحدة من أعلى نسب المديونية في العالم، والوضع يتفاقم محملاً الأكثرية الشعبية الساحقة أعباءا معيشية لا تطاق. يترافق ذلك مع ارتفاع معدلات الهجرة والبطالة والفساد والجريمة...

لقد أكد الحزب الشيوعي دائماً على أولوية المعركة مع الغزاة الأميركيين والمعتدين الصهاينة. لكن ثمة قضايا أخرى تتطلب إهتماماً يتزايد بالإستمرار: قضية التغيير والإصلاح، والتخلص من الطائفية والمذهبية، وقضية التنمية والعدالة الاجتماعية. كل ذلك مطروح في مجرى علاقة التعاون والتباين مع "حزب الله". فكيف بدأت هذه العلاقة؟

بداية العلاقة بين الحزب الشيوعي اللبناني و حزب الله، وآفاقها

بدأت العلاقة بشكل متوتر في مطالع الثمانينات إثر نشوء "حزب الله" عام 1982 بعد الغزو الاسرائيلي للبنان في ذلك العام. أما سبب التوتر فيعود الى طغيان التأثير الايراني على صورة ونشاطات "حزب الله"، بما جعله يبدو وكأنه حزب ينفذ مهمة خارجية وليس مهمة وطنية لبنانية. حصلت صدامات بين الحزب الشيوعي وبين الحزب الناشئ، بعضها كان دموياً. لا ننسى أيضاً أن لبنان كان يعاني قبل الغزو الاسرائيلي المذكور وبعده، من حرب أهلية كانت قد بدأت في العام 1975. كان الاقتتال الأهلي عنيفاً ومستمراً، ورغم أن "حزب الله" نشأ بعد هذا الاقتتال، إلا أنه تأثر به ودخل مناخ الانقسام والمنافسة.

غير أن مرحلة التوتر لم تدم طويلاً. وفي مواجهة الإحتلال الاسرائيلي، بدأت تنشأ أشكال من علاقة التعاون والتنسيق. وبرز ذلك بشكل خاص حين اتخذ الطرفان أي الحزب الشيوعي و"حزب الله" موقفاً رافضاً للاصطدام بقوات الثورة الفلسطينية فيما عرف بـ "حرب المخيمات" التي كانت حركة "أمل" المدعومة من السلطات السورية آنذاك، طرفاً رئيسياً فيها. وكانت العلاقة مع "حزب الله" تتسع أكثر بمقدار ما بدأ ينخرط في القتال ضد العدو الصهيوني كأولوية كبرى في نشاطه. ومعروف أن الحزب الشيوعي كان يمارس في الفترة ما بين عام 1982 وعام 1986 الدور الرئيسي في مقاومة الاحتلال. جمعت أولوية المقاومة كلا الحزبين، وأن ظل التنافس قائماً بينهما، لكن ليس بشكل عنيف أو عدائي.

وفي عام 1986 إضطرت القوات الاسرائيلية الى الانسحاب تحت ضغط المقاومة من معظم الأراضي التي كانت قد إحتلتها في غزو 1982. وهي عادت الى الشريط الذي كانت تحتله منذ عام 1978. وكان الوضع السياسي والأمني في لبنان قد تدهور الى درجة كبيرة. فلقد تعذر عام 1988 انتخاب رئيس جديد للجمهورية، وشمل الانقسام والاقتتال حتى الأطراف التي كانت متحالفة قبل ذلك. بلغ سوء الوضع اللبناني

درجة فرضت تدخلاً خارجياً، دولياً وعربياً، لضبط الصراع ولضبط إنعكاساته الخارجية المقلقة من الناحية الأمنية، خصوصاً، لعدد من الدول الغربية (عمليات خطف الاجانب والطائرات...) فتم التوصل في مدينة "الطائف" السعودية عام 1989 الى إتفاق حمل اسم تلك المدينة، ورعته الدول الغربية والعربية، وتمكنت السلطات السورية من أن تحصل بموجبه على تفويض بإدارة جوانب عديدة من الوضع اللبناني. ثم حصلت تطورات دولية وإقليمية دفعت هذا التفويض الى أن يصبح شبه كامل ووحيد. نعني بذلك إنهيار الاتحاد السوفياتي وقيام الولايات المتحدة بتنظيم تحالف دولي لشن حرب على الجيش العراقي لإخراجه من الكويت، بعد أن كان قد احتلها قبيل ذلك. مشاركة السلطات السورية في التحالف المذكور منحتها دعماً أميركياً لدورها في التفرد بإدارة الوضع اللبناني، وحدث ذلك بالتعاون (في المجال الاقتصادي خصوصاً) مع قيادة المملكة العربية السعودية.

وبالمقابل كان التحالف الايراني – السوري يتوطد في مواجهة التطورات المحتملة إثر إنهيار الاتحاد السوفياتي. ونشأت معادلة في لبنان تم بموجبها حصر المقاومة بـ "حزب الله" الذي حظي بالدعم السياسي والعسكري والمالي واللوجستي من التحالف الايراني – السوري. أما الحزب الشيوعي فقد عانى من أمرين: الأول التأثير المعنوي السلبي لإنهيار الاتحاد السوفياتي، والثاني التعامل معه من قبل السلطات السورية في لبنان على أنه يملك ميليشيا يجب حلها وليس مقاومة يجب المحافظة عليها وتعزيزها.

تراجع بشكل كبير دور الحزب الشيوعي في المقاومة ضد العدو الاسرائيلي، وإستمر الأمر كذلك حتى توقف نشاط الحزب فيها بشكل شبه كامل عام 1993. لكن قيادة الحزب ظلت تحاول استئناف دور الحزب إستناداً الى موقف الحزب السياسي، والى رصيد وامكانات واقعية قائمة. وفي هذا السياق، تم الاتصال مع قيادة "حزب الله" من أجل التنسيق. فاستجابت قيادة الحزب آنذاك وقدمت بعض المساعدات التسليحية واللوجيستية. وكان ذلك أساس لعلاقة من نوع جديد، توسعت لاحقاً لتصل الى مستوى سياسي يقوم على هدف مشترك أساسي هو مقاومة المحتل الاسرائيلي، ثم لاحقاً رفض مجمل المشروع الاميركي في المنطقة، الذي بدأ بغزو أفغانستان أواخر عام 2001 ثم غزو العراق عام 2003. فكانت مشاركة الشيوعيين اللبنانيين في التصدي لعدوان إسرائيل على لبنان في تموز عام 2006، استمرارا، ولو محدود، لتقاليدهم في مقاومة الغزاة، وتجسيداً لموقفهم السياسي، لكنها كانت أيضاً تعبيراً عن التضامن مع "حزب الله" الذي كان الهدف الأساسي للعدوان.

برز في المشهد السياسي اللبناني محوران عُرفا بتجمعي 14 اذار و8 أذار. وهذان التاريخان يعودان الى حصول تجمعين شعبيين كبيرين، حشد فيهما كل طرف الحد الأقصى من الجماهير الشعبية، كما أطلق فيهما توجهاته السياسية وأعلن تحالفاته الخارجية. بقي خارج هذين التجمعين عدد من الأطراف والشخصيات، بينها الحزب الشيوعي. جرت محاولة لصياغة محور أو حلف سياسي ثالث، لكن هذه المحاولة لم تتوج بالنجاح. وبسبب طبيعة الإنقسام القائم في المنطقة، والممتد الى الداخل اللبناني، فقد كان الحزب الشيوعي أقرب الى التحالف الذي يضم "حزب الله" وشركاءه. السبب الرئيسي كما ذكرنا أن التحالف الآخر (أي "14 أذار") كان تابعاً لواشنطن وباريس، وقدم نفسه على انه جزء محور "الاعتدال" العربي بقيادة المملكة العربية السعودية والنظام المصري. الى ذلك فقد اتسمت ممارسات فريق 14 أذار في السلطة بطابع يميني كامل لجهة الموقف من السياسات الاقتصادية، ولجهة الإلتزام الحرفي بتوصيات صندوق النقد الدولي والبنك الدولي، في حقول الخصخصة وتقليص دور الدولة في الرعاية الاجتماعية... هذا فضلاً عن الخلل في موقف الحكومة اللبنانية التي يسيطر عليها هذا الفريق، من عدوان اسرائيل على لبنان والمقاومة في تموز/يوليو عام 2006.

لا شك بأن لبنان يعيش أيضاً تأثير المتغيرات في العالم وفي المنطقة، بشكل مباشر أحياناً. نعني بذلك أثر الفشل الأميركي في العراق، والعجز في أفغانستان، وسقوط الحزب الجمهوري في الإنتخابات الأميركية، وأثر الأزمة الاقتصادية ـ المالية التي يتخبط فيها الاقتصاد الأميركي والاقتصادات الأخرى المعولمة...
ثمة أثر أكيد أيضاً لمجيء حكومة متطرفة في إسرائيل وما يمكن أن تؤدي إليه من إحتمالات التصعيد السياسي والعسكري، والعدوان المباشر، بما في ذلك على لبنان.

جرت انتخابات حزيران /يونيو 2009 في لبنان في ظل هذه الأجواء. وحصل حوار كان قد إقترحه ممثلو "حزب الله" على الحزب الشيوعي من أجل التعاون في لوائح مشتركة في هذه الانتخابات، لكن التعاون لم يحصل بسبب اعتذار "حزب الله" عن استئناف الحوار. وقدم الحزب الشيوعي ترشيحات مستقلة ومنفردة بما في ذلك في مواجهة لوائح يدعمها أو يشارك فيها "حزب الله". سبب عدم المضي في الحوار الى نهايته خضوع قيادة "حزب الله" لمقتضيات وأولويات تحالف يفتقر الى شمولية البرنامج والى نفوذ قوى تقليدية تنطلق من مواقع في المجالين الاقتصادي والإصلاحي، هي مواقع الفريق الآخر، المقابل، في تجمع 14 أزار. أمل الحزب الشيوعي أن يؤدي التعاون الى التخفيف من الاستقطاب والمذهبي من جهة، والى تظهير حجم المشكلة الاقتصادية ومشكلة الخلل في النظام السياسي الطائفي، من جهة أخرى. ربما هذا هو السبب الذي منع فريق 8 أذار، الذي يضم "حزب الله"، دون المضي في التعاون معه في الانتخابات النيابية.

وهكذا، ومع تقدير الحزب الشيوعي للدور المقاوم في أبعاده اللبنانية والعربية والإقليمية، الذي قام به "حزب الله"، غلا أنه يناضل من أجل برنامج شامل بأبعاده السياسية والاصلاحية والاقتصادية ـ الاجتماعية. وهو يناضل أيضاً من أجل تحرير المقاومة نفسها من الأثار السلبية للإنقسامات والإستقطابات الطائفية والمذهبية. فهذه الإنقسامات تهدد إنجاز المقاومة والتحرير، كما هي تهدد إنجازات أخرى في مجال الانفتاح والديمقراطية. أكثر من ذلك، فالنظام الطائفي ـ المذهبي بات يشكل خطراً فعلياً على وحدة لبنان وسيادته واستقراره.

*** عضو قيادة الحزب الشيوعي اللبناني**